ملامح من صورة الرفيق خليل الدبس
قيادياً في الحزب وإعلامياً

أربعون عاماً ونيف، ذلك هو تاريخ علاقتي بخليل الدبس. على أنّ هذا العدد الكبير من الأعوام ليس، وحده، هو المقياس في تحديد سمات هذه العلاقة، شكلاً، ونوعاً، ومضموناً، وشروطاً تاريخية. فثمة ما هو أهم من الأعوام، لكنه يضاف إليها فيعطيها معانيها ودلالاتها.

لقد شكّلت مطالع الخمسينات، بالنسبة لكلينا، خليل وأنا، برغم فارق العمر بيننا، وبالنسبة لرفاق آخرين لنا، محطة تاريخية حاسمة أثرت في مجمل تطورنا، تطور شخصية كل منّا، وتطور موقعه ودوره في الحياة، وتطور نظرته إلى الأحداث، وتطور وعيه. وأثرت في تحديد اتجاه كل منّا، في الفكر والسياسة، وفي الانتماء، بكل أشكاله ومضامينه، وبكل مستوياته. ولم يكن انتسابنا المبكر إلى الاشتراكية، وإلى الشيوعية، هو في السادسة عشرة من عمره، وحتى قبل ذلك، وأنا في السابعة عشرة من عمري، أي قبله بعدة سنوات، لم يكن صدفة، ولا مجرد نزوة شبابية. بل كان ذلك الانتساب، أو الانتماء، أو الارتباط شكلاً من أشكال التعبير الحقيقي عن طموح جارف كان يشد جيلنا، أو نُخباً منه، إلى الحرية والتقدم، وفي العدالة، مستنداً إلى شغف في المعرفة، والتفتيش والتفاؤل، كان يحفّزها ذلك التناقض الذي كنّا نشهده ونعاني من حدّته، بين واقع مأزوم تعيشه بلداننا، وإنجازات كبرى كانت تنقل إلينا، بصيغ مختلفة، أمثلة عنها مبالغ فيها بالتأكيد، تحققها تجربة جديدة ناجحة للحرية والتقدم والعدالة، تحمل اسم الاشتراكية، كفكر، وتحمل اسم الاتحاد السوفياتي كميدان للاختبار، وتحمل اسم ثورة أوكتوبر، كأداة وكنقطة انطلاق.

أتذكّر تلك البدايات لأنني أرى فيها مفتاح معرفة لا يمكن بدونها أن نقرأ هذا التاريخ المجيد لمسيرة حزب، ولمسيرة أفراد فيه لعبوا، من مواقع مختلفة، في صفوف المناضلين، وفي القيادة، بمستوياتها كافة، أدواراً متميّزة، وتركوا بصماتهم في الكثير من القرارات، وفي الكثير من المحطات والمنعطفات.

أتذكّر تلك البداية، في لحظةٍ أحاول فيها أن أستعيد بعض ما ارتبط باسم خليل الدبس من صفات وسمات وملامح. ولعلّي لا أبالغ إذا قلت بأنني بين كثيرين في الحزب الشيوعي اللبناني ممّن عايشوا خليل الدبس وعملوا معه، من أكثرهم معرفة به، وأكثرهم قدرة على تحديد هذه الصفات والسمات والملامح عنده. ومع ذلك فإنّ المهمة صعبة ودقيقة. وسأحتاج، أنا بالذات، إلى وقت لكي أتمكّن من قول ما ينبغي قوله فيه. ولا يتعلق الأمر بخليل الدبس وحده. فهذا هو حالي مع آخرين

من رفاق عمري، ممّن فارقونا، أوّلهم حسين مروّة، وهو كان أول مَنْ أسهم في اكتشاف عناصر وعي متقدم عندي، في مراحل شبابي الأول، وأسهم في دفع هذا الوعي إلى نهاياته. ولا أستثني مهدي عامل، وآخرين، قبله، وبعده، من هؤلاء الرفاق.

لقد مرَّ عام على غياب خليل. ولكن المشاعر، بفعل غيابه، تتناقض، وإني لأحسّ، في لحظة، وكأنّ هذا العام هو الدهر كلّه. وأحسّ، في لحظةٍ أخرى، وكأن خليل قد فارقنا البارحة. ومصدر هذا التناقض في المشاعر، بين لحظة وأخرى، هو أنّ خليل كان، حتى في فترة مرضه، وفي الجزء الأخير القاسي منها، فائق الحضور في حياة ووجدان مَنْ يعرفونه، القريبين منه، بوجهٍ خاص، وحتى الذين كانوا لا يرونه إلاّ في المناسبات. كانت شخصيته متعددة، ومتناقضة، في آن. وكانت ثقافته الواسعة، وأحلامه ومطامحه، لا حدود لها، ونظرته الواقعية إلى الأمور، وإلى أحداث الدنيا، البالغة الحدّة، كانت جميعها تسعفه في الدخول في كل المواضيع، وفي كل الشؤون، وتجعله في موقع القدرة على الإسهام في تحليلات وتدقيقات، وفي رسم خطط، وفي تقديم أجوبة، أو مشاريع أجوبة، عن كثير من القضايا، وحتى في المساهمة في حلولٍ لمشاكل تتعلق بالأفراد، ممّن كانوا يحبون أن يلتجئوا إليه، وممّن كان يحب أن يستمع إلى مشاكلهم، ويسعد في تقديم المساعدة لهم في حل هذه المشاكل.

كان خليل يفوقنا جميعاً في القراءات والمتابعات، كان يبتلع الكتب ابتلاعاً، الكتب المتنوعة، المتعددة، التي تبدأ بالروايات البوليسية وتنتهي بآخر الأعمال الأدبية، وبآخر الأبحاث السياسية والفكرية، وبآخر منجزات العلم والتكنولوجيا. وبهذا كان مدرسة بذاتها. ولكم كان يسعده أن يقدّم، بين الحين والآخر، لأحد رفاقه وأصدقائه، كتاباً يعرف أنّه سيلقى الاهتمام منه. ويكاد لا يخلو بيت من بيوت الكثيرين من رفاقه من مثل هذه الكتب التي كان يحملها إليهم في أسفاره العديدة إلى الخارج، وإلى باريس، على وجه التحديد.

في مطلع الخمسينات، كان خليل لا يزال طالباً في البكالوريا، في مدرسة الليسيه، برز كوجهٍ طلابي جريء. ولم يلبث أن أصبح ركناً أساسياً في قيادة منظمة الحزب الطلابية، وركناً في الحركة الطلابية، بوجهٍ عام. وهو ما أهّله لكي يدخل في هيكل العمل الحزبي، لمنظمة الحزب في العاصمة، التي كانت تشمل كل الضواحي، جنوباً وشمالاً، وشرقاً. ولكنّه كان تلميذاً لرئيف خوري. أحبّه كأستاذ متميّز، واختصم معه عندما كان رئيف في خصامٍ مه الحزب. وكان، بتأثيرٍ منه، ومن مدرسته الجريئة في الأدب، بخاصة، وفي الثقافة بعامة، يقتحم أبواب ومكاتب مجلّة "الثقافة الوطنية"

ليعمل، إلى جانب محمّد دكروب، في بعض مبادرات جميلة، جذب إليها بحيويته، وبعشقه اللامحدود للآداب، والفنون، عدداً من رفاقه الطلاب ليسهموا معاً في إغناء هذا المنبر الثقافي.

وكان، في السبعينات، من أوائل مَنْ قرعوا الجرس، ودقوا أبواب المستقبل، من خلال البحث عن أشكالٍ جديدة للفكر الاشتراكي أكثر ملاءمة لظروف بلادنا، ولخصوصياتها، ولتراثها، ولمستويات تطورها، الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والحضاري. وأسهم، مع رفاقه هؤلاء، في حركة التجديد التي ترافقت مع أزمتين في الحزب، في النصف الأول من الستينات، وفي النصف الثاني منها، وأنتجت المؤتمر الثاني للحزب. وكان في ذلك اقتحامياً ساعده في جرأته الاقتحامية هذه ما كان يمتلكه من ثقافة، وما كان يتمتع به من حيوية شباب، وما كان يتصف به من فضول في المعرفة، معرفة كل شيء، والدخول في الأعماق، وعدم الركون إلى الظواهر، وعدم الاكتفاء بالقشور. ولم يكن بحاجة لأن يحتل مقعداً في صفوف القيادة لكي يلعب دوراً قيادياً متميّزاً في كل ما سبق عملية التجديد في الحزب، هذه، ورافقها، ونتج عنها، مباشرة، وفي العقود اللاحقة كلّها، حتى لحظة وفاته. وقد التصقت كل هذه السمات بطبيعة عمله، في كل ميدان من الميادين التي كُلِّف بها، وما أكثر تنوعها واختلافها. ولكنه أبدع في ميدان أساسي لا يمكن لأي منّا، نحن رفاقه، إلاّ أن يقف عنده بتقدير وإعجاب، وهو ميدان الإعلام، ولعلّه، بيننا جميعاً، هو الذي عمل في هذا الميدان، بشغفٍ عميق، وباندماجٍ كليّ، وبمعرفةٍ، وبإبداع. وتتلمذ على يديه عدد كبير من الإعلاميين، من أجيالٍ ممختلفة.

ولكن خليل الدبس كان مزاجياً. كانت له طبائعه الخاصة. وهي، برأيي، سمة من سمات الأفراد الذين يتميزون. فالذين لا يملكون طباعاً خاصة، وأمزجة خاصة، وأساليب خاصة في الحياة، لا يستطيعون أن يبدعوا في ميدان عملهم، وفي علاقاتهم، وفي ما يرسمونه من خطط، وما يقدمونه من تحليلات، وما يحملونه من مواقف وآراء وأفكار. ولكن الطباع والأمزجة الحادة، وكذلك أساليب الحياة المتميّزة، لا ترضي كل الناس. بل هي، باختلافها، وبحدّتها وتميُّزها، تخلق اختلافات وتمايزات. وتلك، لعمري، واحدة من الأمور الطبيعية التي لم نستطع أن نستوعبها، نحن كشيوعيين، في الفترة السابقة كلّها، وألغينا الفوارق بين الخصوصيات التي يمتلكها الأفراد ويختلفون في ما بينهم فيها. وهكذا يمكن أن نضيف إلى شخصية خليل المتمسّزة، المتعددة، هذه السمة الإنسانية، بامتياز، التي جعلته يحب، ويختلف، وجعلته موقع حب، واختلاف.

إنّ التعدد في شخصية خليل الدبس، والغنى الفائق فيها، يجعلان الحديث عنه صعباً، ومغرياً، في آن، فإني أشعر وكأنّه إلى جانبي، يصغي إليَّ، ويقلب شفتيه، ضاحكاً حيناً، عابساً حيناً،

مبتسماً، حيناً ثالثاً، في شكل سخريةٍ يحاول أن يخفيها، ولكنّه يرغب في أن يراها الناظر إليه، من دون أن يُشعره بذلك. ولست، في هذه التداعيات، ساعياً إلى دراسة شخصية خليل الدبس، ولا باحثاً عن صيغة أُقوِّم فيها إسهاماته الفائقة الغنى، والمتعددة الوجوه، في حزبه، وفي الحياة الفكرية والسياسية، في بلادنا، ولا راغباً في الدخول في رواية سيرة حياة رفيق عزيز فقدناه، أو سيرة حزبٍ أسهم في بنائه هذا الرفيق العزيز، بالذات. كلاّ، قطعاً. إنّها مجرد تداعيات دخلت فيها في شكل عفوي عندما حملت القلم لأتذكّر خليل الدبس، الذي لا تغيب صورته، وأتذكّر، من خلاله، عالماً بكامله يتمثّل في شخصيته الغنية المتعددة، المختلفة.

لقد كانت الصداقة التي ربطتني بخليل، صداقة من نوعٍ خاص جداً. بدأت في أوائل الخمسينات، واستمرت حتى وفاته في عام ١٩٩٢. إذْ هي من ذلك النوع الذي لا ينتهي. فتبقى مع الذي يبقى. ولا تذهب مع الذي يذهب. إنّها صداقة حميمة، وصعبة، في آن، وقد تميّزت، على الدوام، بالصراحة، وبالنقد المتبادل المباشر جداً. وكنّا، دائماً، في نقاشاتنا الحادة يُغني واحدنا الآخر. وكنّا نتفق، ونختلف، من دون حذر، أو حرج. وكنّا، في الوقت ذاته، نتبادل، بحميمية عميقة، أنواعاً شتى من الهموم والهواجس، الشخصية والعامة، وكذلك أسرار الحياة الدفينة.

مثلُ خليل الدبس يبقى في الوجدان، أبداً. ويبقى في الفكر، وفي الحياة، وفي حركة الأحداث، وفي المستقبل، الذي نعمل على إعادة بنائه، من القاعدة إلى القمة. أمّا الأساس فموجود في تراثنا، نحن، وفي تراث البشرية كلها. وهو ما لا يستطيع مرّ الأيام، وعواصف الأحداث، والزلازل، أن يمحوه.

لا يسعني وأنا أودع خليل الدبس إلا أن أشير إلى أنه كان ينتمي إلى عائلة شيوعية عريقة من والده ووالدته أبو زاهي وأم زاهي وشقيقيه زاهي وعصام اللذين كانا مثقفين شيوعيين مرموقين. وقد ربطتني بالعائلة علاقة صداقة ورفقة في العمل الحزبي تستعصي على النسيان.